الفكر الديني الهندي
في الدراسات العربية بعد البيروني

د. مسعود حايفي
جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

تمهيد:

شكل البيروني علامة فارقة ليس في تاريخ الفكر العربي الإسلامي وحسب بل و في تاريخ الفكر الإنساني عامة. و لكن المؤسف هو أن الذروة التي مثلها البيروني بإسهاماته وإنجازاته في حقل الهنديات أعقبها انحطاط تام.فالبيروني ظاهرة فريدة، لم تتكرر في الفكر العربي إطلاقا. وقد انتظر الفكر الإنساني قرونا عديدة، أي حتى أواسط القرن التاسع عشر، ليأخذ علماء الهنديات الغربيون بعد البيروني المشعل، و يباشروا ترجمة كتب التراث الفيدي إلى لغاتهم. أما الحضارة العربية والإسلامية ، فلم تعرف بعد البيروني عالماً ينهض ليكمل ما بدأه. و لم تعرف اللغة العربية ترجمة لكتب التراث الفيدي والهندي، إلا ابتداء من الثلاثينات في القرن العشرين.

ومجمل ما نجده عند العرب في عصور ما بعد البيروني فهي عروض ودراسات و إشارات ، تختلف عمقا و طولا و أهمية ، وردت في كتب الملل والنحل أو عند الرحالة و جغرافيي العرب.

لذا سنعرض لأهم هذه الدراسات، استكمالا لملامح اللوحة التي رسمناها عن صورة الفكر و الفلسفة الهندية عند العرب، و تلمسا لأي تأثير محتمل للبيروني في العصور التي أعقبته.[1] و بعدها نعرض لحركة ترجمة كتب التراث الفيدي في العالم العربي في القرن العشرين.

- **أثر البيروني في الدراسات التي تلته:**

إن أول ما يفاجئ من يتلمس آثار و تأثيرات أبحاث البيروني في دراسات علماء و باحثي العصور التي أعقبت هذا العالم، أي القرن الحادي عشر ميلادي، وما بعده، أنّ إسهامات البيروني في الهنديات و منهجيته العلمية المؤسسة لعلم الأديان المقارن، قد جاءت صرخة في واد. فعلى الرغم من عادة مؤلفي العرب، نقل المتأخرين منهم عن المتقدمين، لم نجد حتى الآن مؤلفا أو عالما نقل عن البيروني واستعان بنتائج أبحاثه ونقلها في كتاب، أو استشهد بها في معرض حديثه عن أديان أو فلسفة الهند. كل ما نستطيع استنتاجه أن أبحاث البيروني ساهمت في تعزيز انطباع عند الكتاب العرب، أساسه اعتبار الهنود شعبا يهتم بالفلسفة خاصة و بالعلوم عامة.

[1]-انظر مقالنا :(الدراسات العربية لفلسفات الهند وأديانها البيروني نموذجاً) المنشور في مجلة المعيار الصادرة عن كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية،العدد24 أكتوبر2007.

و من هنا يأتي احترام هؤلاء المؤلفين للهند شعبا و فكرا، و هذا الاحترام الذي رأينا أولى ملامحه عند الجاحظ (255هـ/868م) قبل البيروني، سيستمر بعد عصر البيروني عند عدد كبير من علماء العرب و الإسلام. و سنعرض فيما يلي نظرة قسم منهم، بادئين بعرض موجز لما أورده الشهرستاني عن الهند.

- الشهرستاني و أديان الهند:

يفصل ما بين الشهرستاني والبيروني حقبة تقارب قرنا من الزمن. فما نعرف عنه أنه توفي في العام (548هـ/ 1153م). و لكن من يقرأ ما كتبه الشهرستاني يستنتج بسهولة أن هذا الأخير لم يطّلع على كتاب البيروني. فما يورده في هذا الموضوع يبقى خلاصة المعارف حول أديان و فلسفة الهند عند العرب قبل البيروني. ولكن نرى من الواجب إيراد بعض الملاحظات على ما كتبه الشهرستاني عن الهند. ذلك لأن موسوعة الملل و النحل هي بدون شك، وبحسب ما اتفق عليه علماء الغرب و الإسلام، أفضل كتاب في تاريخ الفكر الفلسفي و الديني، في عصره. فهو عرض يشمل كافة ما عرف مؤلفه، أو وصله من أخبار أديان و عقائد عصره. و هو بالتالي مصدر هام للباحث في تاريخ الأديان. فالشهرستاني يعرض و يؤرخ، وهو بذلك يختلف عن سابقيه من المؤلفين. فهم عرضوا مذاهب الهند الفلسفية و الدينية، من وجهة نظر إسلامية، بغية تكفيرها و بطلان عقائدها كالتناسخ و غيره. ر الشهرستاني في تاريخه للمذاهب و العقائد و الأديان توخى لنفسه الموضوعية، لا المناقشة و المناظرة والإفحام. فهو يقول عن منهجيته في مقدمة كتابه: " وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم، من غير تعصب لهم و لا كسر عليهم،

دون أن أبيّن صحيحه من فاسده. و أعين حقه من باطله، و إن كان لا يخفى على الأفهام الذكية.... "[1]

و في هذه المنهجية يتلاقى الشهرستاني مع البيروني. كما يتميز عمن سبقه أو لحقه من كتّاب الملل و الأديان، كابن حزم (ت456هـ) في " الفصل في الملل والأهواء و النحل " أو عبد القاهر البغدادي في " الفرق بين الفرق " وغيرهم.

لن نسهب الكلام حول عرض الشهرستاني لأديان الهند وعقائدها، فذلك يتجاوز موضوع دراستنا. لذا سنكتفي بإيراد بضعة ملاحظات حول ما جاء في الملل و النحل عن الهند.

يبدي الشهرستاني في بداية عرضه احتراما و تقديرا للهند، ما نجده عند كثير من المؤلفين غيره فيقول: " إن الهند أمّة كبيرة و ملّة عظيمة و آراؤهم مختلفة "[2]

. و نظرة الاحترام و التعظيم هذه نلمحها في أماكن عدة من الكتاب، فهو في المقدّمة مثلا يورد رأيا يقول:"ومنهم من قسّمهم بحسب الأمم فقال: كبار الأمم أربعة العرب والعجم و الرّوم والهند. ثم زاوج بين أمة و أمة. فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد. و أكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بإحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية.والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد... "[3]

---

[1] -الشهرستاني أبو الفتوح محمد بن الكريم:الملل والنحل ج1،ص9.

[2] الشهرستاني :ج3،236-237.

[3] الشهرستاني ج1ص3.

و لكن الشهرستاني، عند عرضه لعقائد الهند، يبدو غير ملم إلى حد كاف بالفكر الهندي. فبالإضافة إلى إيجازه الشديد، يقع في خلط و يقدم معارف ناقصة، و حتى خاطئة مرّات عديدة. و من أمثلة الخلط الذي يقع فيه: ينسب الشهرستاني البراهمة إلى براهم فيقول: " إلا أنّ هؤلاء البراهمة ينتسبون إلى رجل منهم يقال له براهم قد مهّد لهم نفي النبوات أصلا ".

و ليس الشهرستاني أول مؤلف عربي يخلط في هذا الأمر.

و يتحدث الشهرستاني عن التناسخ فيعتبره فرعا من فروع ثلاثة للبراهمة فيقول: " ثمّ إنّ البراهمة تفرّقوا أصنافا فمنهم أصحاب البددة، و منهم أصحاب الفكرة و منهم أصحاب التناسخ ". و هذا أمر خطأه واضح. في حين يجعل البيروني التناسخ أساس كل عقائد الهند فيقول: " كما أنّ الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين و التثليث علامة النصرانية و الإسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ عَلَمُ النّحلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يكن منها ولم يعد من جملتها " "[1]

و رأي البيروني أقرب إلى الواقع و الحقيقة.

هذا بعض ما أورده الشهرستاني من خلط و أخطاء. يبقى أن دراسة عرض الشهرستاني لأديان الهند، تتطلب تتبعا دقيقا للمصادر التي أخذ عنها. و هذا يتخطى مجال هذا البحث. و نختم عرضنا لآراء الشهرستاني بحكم لعلي زيعور نجده منصفا يقول " إن كان الشهرستاني لا يؤيد البراهمة، كما يفعل الرازي

---

[1] -البيروني أبو الريحان: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة،حيدر آباد الهند 1958،ص38.

مثلا، فإنه لا يعرض آراءهم بشكل تسفيهي أو تبخيسي.و هنا يبدو لنا مفكرا يحترم العقل البشري. و يجلّ الفكر الفلسفي. و يؤيد النظر والبحث رافضا التعصب و التركز حول نظرة دينية واحدة ووحيدة للوجود .

-نظرة قدامى مؤلفي العرب إلى الهند :

يزخر الأدب العربي الذي وصلنا بالحديث عن حكماء الهند و فكرهم.

و سنختم عرضنا هذا للفكر الهندي عند العرب في العصور الكلاسيكية بعرض لبعض من هذه الآراء لمعاصري البيروني و لاحقيه، محاولين بذلك إكمال صورة الهند عند العرب، و اقتفاء أثر حركة ترجمة الكتب".

الهندية إلى العربية. فالجاحظ يقول في كتاب فضل السودان على البيضان " عن الهنود :" أنّهم أهل حك".

صحيح و شجاعة. و أنّ الهند معدن الحكمة و الفكر و بعد النظر ".[1]

أما المسعودي (354هـ/965م) و هو معاصر للبيروني فيعتبر الهنود واحدا من الأجناس السبعة العظيمة على سطح الأرض، و يقول في مروج الذهب: " ذكر جماعة من أهل النظر و البحث الذين وصلوا العناية بتأمل شأن هذا العالم وبدءه، أنّ الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح و الحكمة ".[2]

---

[1] -أحمد سيد مقبول:العلاقات العربية الهندية، ترجمة نقولا زيادة،بيروت، الدار المتحدة،1974،ص185.

[2] -المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر،تحقيق شارل بلا بيروت، الجامعة اللبنانية1965،ج1،ص84.

و يقول أبو حيان التوحيدي الأديب المشهور (ت 400هـ/1010) في كتابه، "الامتناع و المؤانسة ":

للفرس السياسة و الآداب و الحدود و الرسوم، و للروم العلم و الحكمة، وللهند الفكر و الرؤية و الخفة، و للعرب النجدة و القرى و الوفاء ".[1]

و يورد القاضي صاعد الأندلسي (ت 462هـ/1070) في كتابه " طبقات الأمم": " أنّ الهنود معدن الحكمة و مصدرها". و يقول "إنّ الشعوب التي ندبت نفسها للعلم هي ثمانية: الهنود، و الفرس، و الكلدانيون، و العبرانيون، و اليونان، و الرومان، و المصريون، و العرب". و يعقّب على ذلك بقوله "و الهنود أكثرها عددا و لهم الممالك الكبيرة، و حكمتهم و معرفتهم إنما أمران مقرران " و يقول القلقشندى (756هـ/1355/1418)، صاحب موسوعة " صبح الأعشى في صناعة الإنشا " و هي دائرة معارف لعصرها في التاريخ و الجغرافيا و غيرها "إن الهنود أهل حكمة و حصافة يضبطون مطامعهم ".[2]

و المقريزي، المؤرخ المصري الشهير (845هـ/1441)، يعتبر الهنود " الفلاسفة بامتياز فيقول: "و اسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهند، و هم الطبسيون البراهمة - و لهم رياضة شديدة و ينكرون النبوة أصلا. و يطلق أيضا على العرب بوجه أنقص ".[3]

---

[1] -التوحيدي أبو حيان:كتاب الإمتاع والمؤانسة،تحقيق أحمد أمين،بيروت –دار مكتبة الحياة(د.ت)ص74.

[2] أحمد سيد مقبول: مرجع سابق ص185-186.

[3] -المقريزي تقي الدين أحمد بن علي: الخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم، القاهرة،مكتبة مدبولي 1998،ج3 ص393.

هذا أهم ما وجدناه في مطالعاتنا من إشارات و أحكام عند مؤلفي العرب والإسلام عن الهند. و به نختم بحثنا عن الثقافة الهندية في العصور العربية الكلاسيكية.

-حركة الترجمة بعد البيروني حتى القرن العشرين:

من يدرك أنّ العرب كانوا أول من عرف العالم على الثقافة الهندية وعلومها عبر كليلة ودمنة و ترجمات البيروني و نقل نظام الأرقام الهندية إلى الغرب، وغيره من الإسهامات التي أغنت الثقافة الإنسانية، يعجب و يندهش من هذا الجمود في التبادل الثقافي و حركة الترجمة بعد البيروني. و كما سبق فباستثناء ما جاء عن الهند في كتاب " الملل و النحل " و كتب رحالة و جغرافيي العرب بعد عصر البيروني، لا نجد شيئا يستحق الذكر. و لعل العرب شغلوا، بعد حركة الترجمات الأولى عن السنسكريتية، في مطلع العصر العباسي، شغلوا عن التراث الفيدي بالتراث اليوناني. و حوّلوا أنظارهم من الهند إلى أثينا. و ما كان البيروني إلا حالة استثنائية. و قد عبر جمال الدين القفطي (563هـ- 646هـ /1167- 1248م) الذي تفصله عن البيروني حقبة قرنين، عن حالة البعد الثقافي هذه، عن الهند في عصره بقوله: "و لبعد الهند عن بلادنا، قلّت تآليفهم عندنا، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم، و لا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم ".[1]

هكذا انتظرت الهند بعد البيروني حتى أواخر القرن الثامن عشر، ليعرف العالم شيئا عن كنوز الحكمة التي تختزنها كتبها. و كان ذلك عام 1784م، حين ترجمت البهاغفاد غيتا، بأمر خاص من نائب الملك البريطاني في الهند السير

[1] -نقل هذا النّص عن يوحنا قمير: أصول الفلسفة العربية، بيروت دار المشرق 1973،ص 38.

ورن هستنغ. و طبعت الترجمة الإنكليزية في لندن. فكان ذلك أول عهد العالم خارج الهند بكنوز الأدب السنسكريتي. أما في العالم العربي، فكان لابد من الانتظار حتى القرن العشرين، لتعاود حركة ترجمة الكتب السنسكريتية نشاطها. و أول كتاب ترجم كان، البهاغفاد غيتا على الأرجح.

- نظرة عامة على الكتب المترجمة:

لقد جمعنا ما وقعت عليه أيدينا من كتب التراث الفيدي المترجمة إلى العربية، و هي لسوء الحظ ليست بالكثيرة. و سنورد فيما بعد لائحة بيبليوغرافية مفصلة لها. و هذه اللائحة مقسمة حسب المواضيع إلى خمسة أقسام.

1-ترجمة مختارات من الفيدا و الأوبانيشاد.

2-ترجمات المهابهاراتا.

3-ترجمات البهاغفادغيتا.

4-ترجمات اليوغاسوترا.

5-ترجمات نصوص الأدب الفيدي الأخرى.

نذكر هنا أن بحثنا في الترجمات العربية اقتصر على الكتب السنسكريتية وبالأخص التراث الفيدي. أما الكتب البوذية فلم نأت على ذكر لها لا في العصور العربية الكلاسيكية، و لا في الزمن المعاصر. فهي لا تشكل قسما من الأدب الفيدي من ناحية، و ليست في الغالب مكتوبة بالسنسكريتية من ناحية أخرى. وتستوجب بالتالي دراسة على حدى.

أما هذه الكتب التي قسمناها في البيبليوغرافيا إلى خمسة أقسام، فسنقتصر على عرض الأبرز و الأهم تاريخيا و أدبيا منها. و سنكتفي في عرضنا بتقديم موجز مع بعض الملاحظات. دون التوسع في دراسة نقدية و مقارنة للترجمات.

فهذا يتجاوز مجال البحث وحجمه. و سنلقي إتماما للفائدة أيضا، نظرة سريعة على عدد من الدراسات التي كتبها مؤلفون عرب معاصرون عن فلسفة الهند وأديانها.

لترجمات في النصف الأول من القرن العشرين:

-ترجمة نشيد المولى:

لعل أول ما ترجم إلى العربية في القرن العشرين من كتب الأدب الفيدي هو كتاب البهاغفاد غيتا (نشيد المولى). و ذلك ليس بالغريب، فالكتاب درة الأدب الهندي و جوهرته الأثمن. و كان كما أشرنا أول كتاب سنسكريتي ترجم إلى لغة غربية.

و قد وصلتنا ترجمة لهذا الكتاب، طبعت في مدينة كلكته الهندية، عام 1933. ثم أعادت مطبعة دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الركن الهند، طباعتها في العام 1951. والمطبعة المشار إليها مشهورة بنشر أمهات الكتب العربية ومصادرها.

أما مترجم هذا الكتاب فهو الدكتور ماكن لال راي شودري، رئيس قسم التاريخ و الثقافة الإسلامية في جامعة كلكته – الهند. و يقول الدكتور شودري في مقدمة الكتاب، أنه ترجم البهاغفادغيتا، أثناء دراسته في الجامعة الأزهرية في القاهرة. و قد أشرف على هذه الترجمة و راجع لغتها العربية الأستاذ في الجامعة الأزهرية محمد حبيب أحمد. فالترجمة على ما يبدو تمت عن اللغة السنسكريتية، أي اللغة الأصلية للكتاب. مع تصحيح للنص العربي النهائي. ويسبق النص مقدمة مفيدة تروي عن الغيتا و ظروف تأليفها ، و الترجمة مذيلة بشروح عديدة خالية من الشوائب بوجه عام.

وشكّل هذا الكتاب بداية جيّدة، و مساهمة قيمة و أول خطوة في ترجمة كتب التراث الفيدي وما يتطلب ذلك من ترجمة لعدد كبير من المصطلحات التي يزخر بها كتاب الغيتا.

-ترجمات وديع البستاني:

و يبقى أهم مَن عمل في هذه الحقبة، في ترجمة الكتب السنسكريتية جندي شبه مجهول، إذ لم تر سوى واحدة من ترجماته طريقها إلى المطابع، إنّه الشاعر وديع البستاني.

ولد وديع البستاني في قرية الدبية في الشوف لبنان عام 1888. و فيها نشأ وعاد لينهي فيها حياته عام 1954. و هي قرية البساتنة بطرس و سليمان و فؤاد الذين أغنوا العربية بإسهاماتهم العديدة. ووديع البستاني هو ابن عم سليمان البستاني معرب ملحمة الإلياذة الشهير، و عنه أخذ ولعه بالملاحم. وأول ما قام به هو تعريب رباعيات الخيام شعرا إلى العربية عام 1911.

أقام في الهند بين عامي 1912و1916 ففتنته و خلبت لبه كما يقول. و تعلم السنسكريتية و غاص على حد قوله:"في خضم الملاحم الخالدة و التحف المقدسة من تراث المتهندة القدامى"[1]

وقد أمضى على ما يذكر حوالي أربعين سنة في ترجمته روائع ملاحم الأدب الهندي.

[1] -البستاني وديع: المهابهارتا : الملحمة الهندية، كبرى الملاحم العالمية، بيروت الجامعة الأمريكية1952،ص2.

و في العام 1917 صدرت له أول ترجمة لكتاب هندي. و هو كتاب طاغور "البستاني"، و كانت تربطه بطاغور صداقة. و قد عرب هذا الكتاب نثرا و شعرا و أطلع طاغور على ترجمته. و نشرت الترجمة دار المعارف بمصر.

أما بقية ترجماته فهي بحسب أقدميتها في التأليف:

الرامايانا: ويعتبرها وديع البستاني الملحمة الهندوية المقابلة للملحمة الهوميرية. المعروفة بالأوذيسة. عربها شعرا فبلغ عدد أبياتها 3950.

المهبراته:__" المهابهاراتا " و يعتبرها الملحمة المقابلة للملحمة الهوميرية المعروفة بالإلياذة، و عدد أبياتها العربية 3472.

قصة نالا و دامينتي: و هي جزء من المهبراته. و عدد أبياتها العربية 1256.

كليلة و دمنة: تعريب لبضعة من أبوابه. و ثلاثة من هذه الأبواب مأخوذة عن ملحمة المهابهاراتا، و قد نقل شعرا ما كان منها شعرا في الأصل السنسكريتي.

شاكنتلا:_و هي مسرحية سنسكريتية لأشهر شاعر مسرحي هندي كاليداسا (عاش بين القرن الرابع و الخامس الميلاديين). و قد عرب الشعر شعرا و النثر نثرا و عدد الأبيات 745. طبعت في الهند عام 1966.

الأساطير الهندوية:_و هو مجموعة من أساطير الآلهة الهندية.

الغيتا:_و قد عرّبها شعرا مع حواش نثرية تفسيرية.

و هكذا نجد أنّ إسهامات البستاني، عمل ضخم لعله الأهم منذ زمن البيروني. و لكن للأسف الشديد، لم ينشر من الأدب الفيدي سوى المهابهاراتا، و في ذلك يقول وديع البستاني: "و كنت يومذاك في القاهرة (عام 1945) فعرضت على ناشري دار المعارف كلا من الكتب الآتية و معظمها من الأدب الهندوي، و استعد لنشرها جميعا في دورها، و قد ازدحمت الدار بالمطبوعات

والزمن زمن قلة في الورق ز نقص عام في سائر ما يلزم للقيام بطبع مثل هذه الكتب".[1]

و هكذا فإن العمل الضخم الذي جاوز الإثني عشر ألف بيت من الشعر، إضافة إلى كم من النثر، لا يزال في غالبيته ينتظر إلى الآن من ينشره، وإبقاؤه في الدرج خسارة كبرى للثقافتين العربية و الهندية.

ما يمكن أن نتحدث عنه إذن من إسهامات وديع البستاني يقتصر على المهابهاراتا. و هي عمل شعري و توثيقي ضخم في آن. فبالإضافة إلى الأبيات الشعرية التي بلغت كما ذكرنا 3472، قدّم الشاعر للملحمة بديباجة في الشعر الملحمي و التراث الهندي. كما اختتمها بشروح للعبارات السنسكريتية تتجاوز المائة صفحة. مقدّما معظم شخصيات هذه الملحمة.

و نلمح في ديباجة البستاني، تفهما عميقا للثقافة الهندية و روح ديانتها، يذكرنا بالبيروني فهو يقول مثلا تحت عنوان عريض: الوثنية مظهر لا دين: "و لا سبيل إلى إنكار ما بالهند اليوم من مظاهر الوثنية. و لكنّها عند إنعام النظر، مظهر من مظاهر حياتهم الاجتماعية لا عقيدة".[2]

و يضيف تحت عنوان الهندوية و التوحيد: "أما الأدب الهندوي فلا أثر فيه لوثن أو وثنية، بل الأمر على العكس، فإنه يخيل لقارئه أنّ الهندويين أهل توحيد".[3]

---

[1] -البستاني وديع: ديوان الفلسطينيات،بيروت دار البشلئر1981،ص7.

[2] -البستاني وديع: المهابهارتا م.س ص 22.

[3] -المرجع نفسه ص 22.

إنها نظرة رجل منفتح يرى ما وراء الظواهر، و يفرق بين المظاهر الاجتماعية و الإيمان أو العقيدة بحسب تعبيره. و ملاحظة البستاني حول خلو الأدب الهندوي من الوثنية، تذكرنا بتمييز البيروني بين الخاصة الموحدين في الهند و العامة.

و لابد من الاعتراف أنّ تطويع وديع البستاني أوزان الشعر العربي و قوافيه. وجعله يستوعب أسماء هندوية غريبة عن أوزانه، و قصة ملحميه طويلة، وأفكارا فلسفية في الإنسان و الوجود، عمل و إنجاز حضاري لا يضارعه سوى إنجاز ابن عمه سليمان البستاني في ترجمة الإلياذة. و ممّا يؤسف له أنّ هذا العمل لم يأخذ ما يستحق من شهرة و انتشار. فعدد نسخ طبعته الوحيدة، كما هو مذكور في هذه الطبعة، لم يتجاوز الخمسمائة و ستين نسخة. إذ كانت طبعة محدودة. ولم يعاد الطبع بعدها إلى يومنا هذا: في حين بقيت الترجمات الأخرى في الأدراج، باستثناء مسرحية شاكنتلا المطبوعة في الهند.

نختم عرضنا لإسهامات البستاني، بقولٍ لجواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند، عندما تلقى نسخة من ترجمة البستاني للمهابهاراتا: " إن هذه الملحمة المعربة هي خير ما يستطيع العرب إهداءه للهند ".[1]

---

[1] المرجع السابق ص12.

الكتب الهندية المترجمة في الستينات:

أصدرت دار اليقظة العربية بيروت و دمشق كتابين مترجمين، هما الفكر الفلسفي الهندي و منو سمرتي. و نظرا لأهمية كل منهما فسنعمد إلى عرض موجز لهما.

- الفكر الفلسفي الهندي:

الكتاب للفيلسوف الهندي المعروف و رئيس جمهورية الهند السابق سر فبالي رادا كرشنا، و هو عمل ضخم، يضم مختارات من الأدب و الفكر الهندي، منذ أقدم العصور، و صولا إلى القرن العشرين. و قد قام بترجمته عن الإنكليزية الكاتب السوري ندرة اليازجي. وترجمة و نشر هذا الكتاب إسهام في نشر التراث الهندي و تعريف القارئ العربي به. ذلك لأنه كما ذكرنا يضم مختارات من أبرز معالم هذا التراث الفيدي و البوذي المعاصر، إضافة إلى مقدمات تعريفية لكل منها. فمن الفيدا يقدم حوالي 35 نشيدا، كما يترجم 13 أوبانيشاداً، كما يقدم ترجمة كاملة للبهاغفادغيتا و مقاطع هامة من المهابهاراتا، و أقساما من قوانين مانو، كما يقدم مختارات من كتب الجينية المقدسة، لعلها الوحيدة بالعربية، و مختارات من كتب البوذية، كذلك مختارات من أنظمة الفلسفة الهندية الست، و مختارات من الفكر المعاصر لأوروبندورا و رادا كرشنا.

و لا شك أنّ هذا العمل الضخم الذي يتجاوز عدد صفحاته السبعمائة هو الأول من نوعه في العربية، من حيث شموله معالم الأدب و الفكر الهنديين.

و إذا كان لنا من ملاحظة حول الترجمة، فهي أنها جاءت غير دقيقة أحيانا، وضعيفة اللغة.

-منو سمرتي:

و هو ترجمة لقوانين و شرع مانو Manou Smirti و كما ذكر في صفحة العنوان فقد " عربه و شرحه و علق عليه و قارنه بكتب الديانات العالمية الثلاث إحسان حقي. وقد صدرت الطبعة الأولى منه عن دار اليقظة العربية، في تاريخ غير مذكور، ولكنه مقارب لتاريخ الفكر الفلسفي الهندي. و أعاد المترجم إصدار طبعة ثانية منه عن مؤسسة الرسالة في بيروت عام 1988، مصحّحا كثيرا من الأخطاء التي وردت في الأولى، و خاصة الأسماء و التعابير السنسكريتية. وعن طريقته في الترجمة يقول حقي في مقدمة الطبعة الثانية:

" استعنت بعالم هندوكي يحسن السنسكريتية ووضعت أمامي النص السنسكريتي و ثلاث ترجمات إحداها باللغة الأردية و الثانية باللغة الهندية، والثالثة باللغة الإنكليزية و هي اللغات التي أعرفها، و كنت أقرأ فقرة بعد فقرة من هذه الترجمات الثلاث فإذا وجدتها متطابقة أطلب إلى العالم الهندوكي أن يقرأ النص السنسكريتي و يترجمه لي، فإذا رأيته مطابقا لما بين يدي من تراجم ترجمته إلى العربية، و إلا رجعت إلى النص السنسكريتي ".[1]

وواضح أنها منهجية جيدة في الترجمة، و إذا كانت لنا ملاحظات نسوقها، فهي حول مقدمات و شروحات الكتاب، أكثر منها حول الترجمة.

فالمترجم يسارع إلى إطلاق الأحكام العامة و النهائية، دون التثبت منها بشكل كاف و بطريقة يشوبها التعصب و المحدودية في الرؤية، و عدم الانفتاح على أفكار الغير و معتقداتهم.

[1] -إحسان حقّي: مقدمة منو سمرتي:بيروت مؤسسة الرسالة 1988،ص12.

ومثل بيـ◌ِ◌◌ّن لتسرعه قوله عن الترجمة الإنكليزية " و هي الترجمة الوحيدة في العالم قبل ترجمتي".[1] في حين أن ترجمة Deslongchamps – loiseleur الفرنسية، تعود إلى العام 1865، أي تسبق ترجمته بأكثر من قرن.

كما نلاحظ اختلافا في اللهجة و إطلاق الأحكام بين الطبعة الأولى والثانية، فالأولى أكثر تحفظا و رزانة في إطلاق الأحكام. فهو مثلا يقول في مقدمة الطبعة الأولى: " الهندوكيا دين من أقدم الأديان العالمية، بل هي أقدم الأديان التي يمارسها أهل الأرض في يومنا هذا، إذ يعود تاريخ ظهورها في عالم الوجود إلى ألفي سنة قبل الميلاد".[2]

المقطع عينه في المقدمة يتحول في الطبعة الثانية إلى ما يلي:

"الديانة الهندوكية من بقايا الديانات الوثنية البدائية الأسطورية، و إذا كانت قد عاشت حتى يومنا هذا فالسبب في ذلك كونها دونت في كتب "".[3]

.فيا لهذا الحكم السريع و الغريب، و ما هذا التبدل في النظرة بين الطبعتين. كذلك يفاجئنا المترجم بنظرية مقارنة بين اليهودية والهندوكية فيقول:"والهندوكية تشبه اليهودية، في كل فروعها و أصولها، و في شأنها وتطورها، و أنا أرى أنها واليهودية صنوان من أصل واحد، و تشربان في تشريعيهما من نبع واحد. ألا وهو البابلية و هما من بلد واحد و هو العراق مهد الحضارة العالمية الأولى".[4]

---

1 المرجع السابق ص12.

2 -إحسان حقّي:منو سمرتي كتاب الهندوس المقدس، بيروت دار اليقظة العربية(د.ت) ص1.

3 إحسان حقّي طبعة دار الرسالة1988،ص19.

4 -المرجع نفسه ص19.

و يمضي حقي قدما في نظريته هذه فيرى تشابها في الاسم بين اليهودية والهندوكية فيقول: " فليس من قبيل الاتفاق أن تسمى الفرع الذي ذهب إلى الشرق هنديا، و تسمى الفرع الذي ذهب إلى الغرب يهوديا. و لو كنا نعلم ما يعني هذان اللفظان، اللذان تشابهت حروفهما، باللغة البابلية لعلمنا شيئا كثيرا. ولعل لفظ يهود و هنود واحد في الأصل ثم تحرفا بسبب لهجة القومين و بعد الشقة، و هذا كثير الحدوث في كل اللغات ".[1]

فمن أين جاء الدكتور حقّي بهذه النظرية الخطيرة، و عمّمها بهذه السهولة. فنظرية كهذه تحتاج إلى أبحاث أركيولوجية و فيلولوجية عميقة و طويلة، إضافة إلى دراسة متأنية معمقة مقارنة لنصوص كل من الديانتين، أما المترجم فيطبقها دون حاجته إلى أي من هذا.

يبقى أن نشير، في نطاق كتب هذه الحقبة، إلى كتاب أناشيد من الشرق: مختارات دينية وثنية. و قد قام بالترجمة و التعليق و التقديم جورج يونس. والكتاب يترجم ثمانية أناشيد من الفيدا و مختارات من الأوبانيشاد ثم ينتقل إلى كتب البوذية و ديانات الصين. فحظ الأدب الفيدي في هذا الكتاب قليل، أما لغة الترجمة فجيدة: في حين أن العنوان " مختارات دينية وثنية "".[2] عنوان غير محايد و غير مقبول في العلوم الدينية المعاصرة و علم مقارنة الأديان، و هو

---

[1] -الرجع نفسه ص20

[2] -يونس جورج : أناشيد من الشرق: مختارات دينية وثنية، ترجمة وتقديم وتعليق، بيروت المطبعة الكاثوليكية1970(العنوان).

يتضمن موقفا مسبقا مما سيقدمه المترجم. و قد اعتبر يونس أن الهندوسية والبوذية، و الطاوية، الكونفوشسية، و الشنتوية، كلها أديان وثنية.

-بعض الدراسات الهندية في الثمانينات:

قبل أن ننتقل إلى استعراض ترجمات حقبة التسعينات نتوقف عند بعض الدراسات حول الفلسفات والأديان الهندية التي صدرت لمؤلفين عرب في حقبة الثمانينات من القرن العشرين. ونظرا لأننا لا نستطيع استعراض كل هذه الدراسات، فقد اقتصرنا على اثنتين منها، لما لهما من صفة تمثيلية.

-كتاب الأديان القديمة في الشرق:

الكتاب الأول هو الأديان القديمة في الشرق لرؤوف شلبي، [1]

يعتبر شلبي كتابه "دراسة علمية جامعية " في حين أن قراءة هذا الكتاب تثبت أنه أبعد ما يكون عن هذا الوصف.

فهو لا يتعدى كونه مجرد دعوة من الكاتب لأبناء الهندوسية و البوذية ،الذين عرفهما،إلى الإسلام عبر دحض عقائد هاتين الديانتين. و أمثلة الخلط و عدم الدقة في هذا الكتاب كثيرة، منها على سبيل المثال يقول عن الفيدا:"ظلت الديانة الهندوسية تعلم عن طريق اللسان حتى عام 1899.[2]

و لقد كانت الويدا حتى هذا التاريخ تلقن عن طريق التعليم الشفهي". و لا نعلم من أين جاء شلبي بهذا التاريخ ليجعله بداية لكتابة الفيدا.

---

[1] -شلبي رؤوف: الأديان القديمة في الشرق...مع ترجمة لكتاب البوذية، القاهرة دار الشروق1983، ص9.

[2] - المرجع نفسه ص8.

ثم يعيد التأكيد على هذا التاريخ " أما بدء تدوين الويدا عن طريق الحدس والتخمين فهو يرجع إلى عام 1899م. و هو لا يذكر مرجعا لهذا التاريخ " الدقيق " الذي يورده، فعجبا ؟

ثم يقول بغضب و عصبية و دون إبراز أمثلة واضحة:

" غير أن الكاتبين حديثا من علماء الملل و النحل و الأهواء ظنوا أن فقر مذاهبهم يمكن إثراؤه بسرقة مبادئ الإسلام و طرحها في ساحة معتقداتهم على أنها من نحلهم... و هذا ما فعله كتّاب الهندوسية إذ حاولوا سرقة تعاليم الإسلام ليجعلوها دفاعا لهم عن مفهوم الطبقية الآثمة... ويبقى لتلك النحل الزائفة أنها لن تجد لها من نصوصها ما يسعفها للتدليل على ما تسرقه من نظم الإسلام لتخلقها بباطلها الزائف ".[1]

و يا ليت الدكتور شلبي فسّر لنا، أو أعطانا مثلا واحدا، عن محاولة كتّاب الهندوسية سرقة تعاليم الإسلام، ليجعلوها دفاعا عن مفهوم الطبقية.

أما خلاصة بحث رؤوف شلبي عن الهندوسية فيلخصها على الشكل التالي:
"و هكذا يبرهن التاريخ بهذه النتائج الخطيرة للهندوسية على أنّها نحلة ضالة وهوى متبع، و سوق تباع فيه آلهة السخرية و احتقار كرامة الإنسان و عقله وقيمته... فهل يفيق الغافلون؟ "[2]

---

[1] -المرجع نفسه ص 129-130.

[2] - المرجع نفسه ص195.

و خلاصة كهذه غنية عن أي تعليق أو تعقيب.

-كتاب الفلسفات الهندية:

أما الكتاب الثاني الذي نستعرضه، فهو الفلسفات الهندية لعلي زيعور وهو في مجمله وعلى العكس من الأول رزين، رصين، ذو منحى أكاديمي.

و إن كان يمكن للقارئ أن يأخذ عليه بعض الهنات كإطلاق الأحكام العامة، غير الدقيقة، مثل الخلاصة التي يصل إليها: "الفلسفة الهندية، ممزوجة باللاهوتيات... و العقل فيها ليس بالمنزلة الأولى. و لا هو قائد... لا تسعى لبناء العالم و لا لتحديه.

و معظمها لا يقبل الواقع و الجسد و الحياة... بكلمة تلخص و تكثف، إنها أفكار متشائمة في معظمها و سلبية... فالدنيا شرور و عذاب ".[1]

و هذا الحكم برأينا متسرع و تعميمه على كامل الفلسفة الهندية، دليل عدم تخصص و تعمق فيها.

و يقول في الخلاصة عينها، عن الإنسان الكامل في الفلسفة الهندية "الحكيم العارف الإنسان الكامل هو من لا جسد له، ولا فكر له، هو الإله على الأرض... إنه المسيطر على ذاته لا على العالم، والمتأمل لا المنخرط في المجتمع، الرافض للرفاهة و استجلاب المنافع".[2]

و تعليقنا على الحكم الأول ينطبق على هذا أيضا.

---

[1] -زيعور علي : مرجع سابق ص162.

[2] -المرجع السابق ص164.

و خلاصة حديثنا عن بعض الدراسات حول أديان و فلسفة الهند عند الكتاب العرب المعاصرين كما رأينا في كتب حقي، و شلبي، و زيعور، إنها في أحسن الحالات غير دقيقة، و لا تعتمد على قراءة متأنية للنصوص، لأنّها غير متخصصة. و قد تتحمل جزءا من مسؤولية سوء الفهم لأديان و فلسفات الهند الذي نلاحظه أحيانا عند الإنسان العربي.

-ترجمات ظهرت في التسعينات:

ظهرت في مطلع التسعينات ترجمتان للمهابهاراتا واحدة في دمشق و أخرى في بغداد، و تشير دار المأمون- بغداد – التي أصدرت الترجمة العراقية، أنها أصدرت قبلها ترجمة لملحمة الرامايانا.

يبقى أن أهم ما صدر في هذه الفترة، هو كتاب يوحنا قمير" الهند إن شدت و هدت " و كتب حلقة الدراسات الهندية.

-الهند إن شدت و هدت:

كتاب يوحنا قمير،" الهند إن شدت وهدت"، مجهود قيم، جمع فيه إصدارات سابقة له مثل ترجماته لعدد من كتب طاغور ومختارات من غاندي، إضافة إلى ترجمات جديدة، أهمها مختارات من اليوغا سوترا، وتعاليم بوذا، وترجمة كاملة للبهاغقاد غيتا، نشيد المولى، وبعدها مختارات من كاليداسا، كبير، وراما كريشنا.

و لعل ترجمة نشيد المولى، هي أهم ما يقدمه هذا المجلد الضخم، من جديد. و يقول يوحنا قمير في مقدمة الترجمة إنّه قام بها بمساعدة الأستاذ روبير كفوري.[1]

---

[1] قمير يوحنا: الهند إن شدت وهدت بيروت مؤسسة نوفل 1995 مقدمة الكتاب.

و لغة الترجمة لغة عربية متينة بليغة، و لكن كفوري و هو أستاذ في اللغة السنسكريتية، يقول في ترجمته الخاصة، و التي أصدرها بعد ترجمة قمير، ملمحا لا مصرحا عن ترجمة يوحنا قمير " صدرت ثلاث ترجمات عربية لهذا النشيد لم تكن وفية للنص الأصلي، و ذلك لعدم إلمام المترجمين باللغة السنسكريتية والفكر الفلسفي الهندوسي، و إن كان أحد المترجمين (و يقصد به قمير) قد استعان بأحد أعضاء حلقتنا. إلا أنه فرض تعديلات لا تتناسب مع النص الأصلي، و فرض نظرته الدينية الشخصية على ترجمته. لذا رأينا ضرورة ترجمة جديدة وفية للنص، وللإيمان الهندوسي".[1]

و يقصد كفوري بالترجمات الثلاث ترجمة ندره اليازجي، و ترجمة رابح يونس لتفسير برابوباض، و ترجمة قمير التي ساعد فيها.

و يلوح لنا أن ملاحظة كفوري حول ترجمة قمير في محلها، لأنها جاءت أحيانا غير دقيقة، و الترجمة الثانية أكثر دقة، و يبدو أن ترجمة كفوري قد استفادت من الأولى، حيث تجنبت كثيرا من هناتها.

-إسهامات حلقة الدراسات الهندية:

أسس هذه الحلقة الأستاذ روبير كفوري مع عدد من رفاقه، في مطلع التسعينات، و كانت الغاية منها، نشر التراث الهندي، عبر دراسات و ترجمات أمينة لأهم نصوص هذا التراث. والأستاذ كفوري كما أشرنا يتقن اللغة السنسكريتية واللغة الهندية. كما يتقن عددا من اللغات الأوروبية كالألمانية والفرنسية والإنكليزية، ومطلع على ترجمات كتب التراث الفيدي إلى هذه

---

[1] -كفوري روبير: نشيد المولى، حلقة الدراسات الهندية، بيروت مؤسسة نوفل 1998 ص13.

اللغات. إضافة إلى ذلك فهو متخصص في الفلسفة الهندية و الأدب الفيدي و له أبحاث عديدة باللغة الفرنسية في هذا الحقل.

و قد بلغ مجموع ما أصدرته هذه الحلقة حتى اليوم خمس ترجمات لكتب الأدب القيدي والبوذي. و دراستين و ترجمتين لتعاليم اثنين من حكماء الهند المعاصرين. و تشكل إسهامات حلقة الدراسات الهندية، مع ترجمات وديع البستاني، أهم إنجاز في مجال نقل التراث الفيدي إلى العربية منذ زمن البيروني، و هي تتميز عن ترجمات البستاني بأنها أقرب إلى النصوص الأصلية، و تبتغي الأمانة قبل الشكل الأدبي و إن لم تهمل هذا الأخير.

و دراسة إنجازات حلقة الدراسات الهندية، تتطلب بحثا مستقلا، يتجاوز مخطط دراستنا. لكننا نشير إلى بعض مزاياها.

فالكتاب الأول الذي أصدرته، أي "الحكمة الهندوسية معتقدات و فلسفات" دراسة و عرض جاد لمجمل التراث الكلاسيكي الهندي، إضافة إلى نظرة سريعة لحكماء الهند المعاصرين. وتتصف هذه الدراسات بأنها تعميمية الهدف Vulgarisation. لذا غاب عنها الطابع الأكاديمي، الجامعي، من هوامش، وذكر للمراجع والمصادر التي منها استقت. و هي في أية حال تدل على فهم عميق للتراث الهندي، وأهم ما قدمت الحلقة من ترجمات، ترجمة نشيد المولى، و قد أشرنا إليها في سياق حديثنا عن ترجمة قمير، و ترجمة اليوغا سوترا لباتنجل، والأخيرة ترجمة مزدوجة فرنسية- عربية. وتسبق ترجمة اليوغا سوترا دراسة لليوغا و الراجا يوغا، على أساس تعاليم الحكيم الهندي المعاصر سوامي تشيداننذا.

وللحلقة، إسهام في طريقة في كتابة الأسماء والكلمات السنسكريتية باللغة العربية،إذ تعتمد الحركات و ليس فقط حروف العطف، فهم يكتبون Yoga على

الشكل التالي يوغ وBouddha بده وهي طريقة، على صعوبتها، وبعدها عن المألوف، تضبط لفظ هذه الكلمات بالشكل الأقرب إلى أصلها السنسكريتي، ولما تزل حلقة الدراسات الهندية في مستهل عطائها.